ثانيا : إعادة طرح المفهوم - المشترك

المشترك الدينى - السياسى

لقد بدا واضحا أن فكرة القومية العربية (وبالتبعية القوميات أو الأقليات) ابتعدت فى الفترة الأخيرة عن التصدى للقوى المضادة لنا، ومن ثم، كان لابد أن نتنبه أكثر أن التصدى للغرب لايكون إلا بالتنبه لهويتنا القومية العربية التى تتلخص فى الوعى بالمصير والمشترك الثقافى.

لقد بدا واضحا أننا نستبدل أغنيات العرب والعروبة (بلاد العرب أوطانى من الشام لبغدادى) إلى نشيد آخر شدا به المتجهون من المشرق والمغرب إلى غزة، أو إنه - بشكل أكثر دقة - ضمن الأفكار القومية فى نشيد جديد يلفت إلى المصير الواحد الجغرافى والتاريخى فى آن واحد.

وعلى هذا النحو، يكون علينا هنا إعادة طرح المفهوم - الهوية - عبر شبكات المفاهيم السائدة وإعادة طرح مفاهيم صاعدة، فنمر عبر التعريف البسيط إلى التعريف المركب إلى الرمز الدال لنصل عبر إعادة الطرح الأخير للمفهوم -الهوية- حيث نلحظ تطابق القريب مع البعيد أو المفهوم مع المجهول بشكل ما أو بتعبير هيجل حين يرى أن الهوية الحق هى تطابق الهوية مع الاختلاف وهو مايذهب اليه إيف ميشو-

وهو مفكر فرنسى معاصر- من أن سر قوة الهويات المعاصرة يكمن فى تميزها بالتغير وقبول التغيير والمرونة بحيث تصبح هويات ديناميكية.

وهنا يتداخل المشترك الثقافى مع المشترك السياسى فى إطار الهوية العربية، فقد لاحظ أكثر من مفكر عربى هنا أن التوجه العالمى نحو الديمقراطية هو توجه نحو الأخذ بالتعددية ليس فقط السياسية بل والثقافية أيضا وخصوصا فى الدول متعددة الثقافات والأعراق، فلا ديمقراطية دون تعددية بالمفهوم الواسع للكلمة، ولكن ليس كل تعددية تنتمى لثقافة الديمقراطية وتعززها، الديمقراطية تقوم على أساس التعددية بل والاختلاف فى إطار الوحدة «وعلى ذلك فإذا كانت المبالغة فى توطيد التعددية الثقافية على حساب الوحدة الثقافية تؤدى إلى تفسخ المجتمع وضياع هوية الثقافة الوطنية المتفردة، فإن المبالغة أو المغالاة فى الدفاع عن الوحدة الثقافية برفض كل مصادر التنوع الثقافى تؤدى إلى انغلاق الفكر وتدهور القوى الخلاقة المبدعة وإلى العزلة الثقافية..، مما يؤدى إلى النكوص والتراجع والتدهور».

الهوية إذن بما هى- كما يذهب البعض - ظاهرة اجتماعية ثقافية، تعبر عنها الضرورات السياسية؛ فهى ليست حالة ثابتة بالمطلق، فثوابتها هى متغيرات فى نفس الوقت، هى ثوابت من حيث تميزها جماعة عن أخرى ولكنها متغيرة ومتطورة بتغير وتطور الجماعة وطبيعة علاقاتها مع الجماعات الأخرى عبر التاريخ، سواء كانت علاقات منتصر بمنهزم أو بالعكس .فالهوية : ليست أقنوما ثابتا وجاهزا نهائيا، كما قد يفهم أحيانا، وإنما هى مشروع مفتوح متطور على المستقبل، أى متشابك

مـع الواقع والتاريخ .وفضـلا عن هذا فهى ليسـت أحادية البنية .أى لا تتشـكل من عنصـر واحد لها ،هو العنصـر الدينى وحـده أو الاثنى القومـى وحده ،أو اللغوى وحده ،أو الثقافى الوجدانى والأخلاقى وحده أو المصلحى وحده ،أو الخبرة التراثية أو العملية وحدها .وإنما هى حصيلة تفاعل هذه العناصر جميعا».

فإذا كان إعلاء راية الهوية ،وطنية كانت أم قومية أم دينية ،تفرضه الضـرورات أحيانا ،وهى ضرورات تعبر عن حالـة دفاعية فى مواجهة عدو خارجى، إلا أن الحدود قد تزول ما بين الهوية كضرورة للدفاع عن الذات والهوية كضرورة للحشـد والتعبئة لنبذ الآخر وإقصائه أو الاعتداء عليه إن غابت ثقافة التسـامح والإيمان بالتعددية «فإذا كان معاصرونا لا يحضون بالتشجيع على الاضطلاع بانتماءاتهم المتعددة ،وإذا كانوا غير قادرين على التوفيق بين حاجاتهم للانتماء والانفتاح الصريح والخالى من العقـد على الثقافات المختلفة، وإذا كانوا يشـعرون بأنهم مرغمون على الاختيار بين الإلغاء الذاتى وإلغاء الآخر ،نكون فى طريقنا نحو تشكيل جحافل من المسعورين الدمويين ،جحافل من الضالين». ويخلص معلوف للقـول «بأن كل منا مؤتمن على إرثين: الأول عمودى يأتيه من أسـلافه وتقاليد شعوبه وطائفته الدينية ،والثانى أفقى يأتيه من عصره ومعاصريه. ويبدو لى أن الإرث الثانى هو أكثرهما حسما ويكتسب المزيد من الأهمية يومـا بعد يوم.ومع ذلك لا تنعكس هذه الحقيقة على إدراكنا لأنفسـنا، فنحن لا ننتسب إلى إرثنا الأفقى بل إلى إرثنا الآخر».[1]

---

(١) http://www.palnation.org/vb/showthread.php?t=174

- http://akhbar.khayma.com/modules.php?name=News&file=article&sid

واليـوم تتفاقم أزمة الهوية فـى العالم الثالث كظاهـرة يطلق عليها برترانـد بـادى، أثننة العالم ،فالعالم يشـهد اليوم حالـة لا تخلو من تناقـض ظاهري، فمن جانب تتعـرض ثوابت الهويـة للزعزعة، ومن جهـة أخرى تنبثق هويـات كان يُعتقد أنها تلاشـت ،وهويات كانت كامنـة وخصوصـا فـى مجتمعات فقـيرة وضعيفة وجدت فـى الهوية العرقيـة أو الدينية الجدار الأخير الذى يحفظ لها كينونتها ويحول دون اندثارهـا بعد انهيـار الأيديولوجيا .اليوم «يجرى إخراج الإنسـان من يقينيتـه وذاتيتـه وكينونته، وربطه إلى عصر الكونيـة الذى تذوب فيه كل الخصوصيـات». انقلبت إحدى أدوات العولمة ضدا على مسـارها، حيث شجعت هذه الأخيرة، المجموعات الاثنية والدينية والقومية على لبس عباءة الديمقراطية. كما أصبح خطاب الهوية القومية يشـكل شعارا أيديولوجيا تحتمى به الجماعات الاجتماعية المهمشـة ،وهو الأمر الذى دفع المفكر الفرنسى جان فرانسوا بيار إلى الاعتقاد بأن الهوية بمفهومها العام غير موجودة ،إنما الموجود مجموعة من استراتيجيات الهوية التى تحركها نخب فاعلة ومستفيدة ،ونعتقد أن هذا الرأى لا يخلو من وجاهة بالنسبة لحركات قومية متعصبة أو فاشية أو عسكرية تلبس لباس الهوية وتحـارب بسـيفها ،كالنازيين فى ألمانيا الهتلريـة والصرب بعد انهيار يوغسـلافيا ....ولهذا فالهوية لا تصاغ بقوانين ولا تندثر بقوانين ولكنها كالكهرباء تتغلغل فى حياة البشـر وتكمن فى روح القوانين وفى سـلوك الناس وتفكيرهم ومشـاعرهم وتسـتمر ما اسـتمر الانتماء والارتباط بوطن خاص بالجماعة[1].

(1) السابق

وفـي حالتنـا العربية – كمايلاحـظ إبراهيم ابـراش – يعتبر تعدد الهويـات وتداخلهـا أمرا يميز العـرب عن غيرهم، فمـن هوية وطنية أوقطرية إلى قومية إلى إسلامية إلى أممية. و إن كان التعدد أمرا إيجابيا إلا أن التربيـة الحزبية والثقافة السياسـية لبعض الأحـزاب العقائدية عملت على تشوه الهوية والثقافة، حيث غلبت الأيدولوجيا على الهوية .فالأممية ألغت الوطنية والقومية، والقوموية ألغت الوطنية، والإسلاموية ألغت كل شيء حتى العلم الوطني والنشيد الوطني. إن أزمة الهوية في مجتمعاتنا مرتبطة بأزمة الدولة وأزمة الدولة مرتبط بأزمة الهوية وكلاهما يبرر شـرعية طرح السـؤال من نحن ؟.بالإضافة إلى ما سبق فإن الهوية العربية الإسـلامية مشبعة بالأشخاص ،فتقديس الأشخاص والرموز أهم مـن تقديس الأرض والوطن، وتاريخ هويتنا وثقافتنا هو تاريخ أشـخاص زعماء وليس تاريخ منجزات أو تاريخ دولة ووطن.

بيد أننا خروجا من الواقع المؤسى – الإمبريالى الغربى – إلى الواقع العربى فى الشـرق بكل ويلاته، يمكننا الوصول إلى معنى هذا المشـترك الثقافـي بيننـا هنا – فى الشـرق – متصل – ليـس منفصلا بالضرورة – بالقيم الغربية لتأكيد هويتنا العربية الإسلامية فى الشرق..

□□□

⑥ المشترك - الثقافة الدينية

وهو ما يقترب بنا من هذا المشترك فى عالمه الثقافى

وهو ما يقترب بنا من هذا المفهوم – المشترك الدينى– خاصة ما قدم منه فى جامعة القاهرة تحت اسم «المؤتمر الدولى الأول للمشترك الثقافى»، ففيه العديد من هذه الرؤى المهمة .. التى تحدد البدايات – بدايات العقائد – على أنها هى المشترك الذى يجب أن نتمهل عنده، لكننا نضيف مع ذلك تحديد البدايات وتأكيد الهوية الخاصة بنا فى الشرق حين نستعيد هذا المعنى الذى ردد بشكل مباشر أو غير مباشر فى هذا المؤتمر من قوله تعالى لخاتم أنبيائه ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾

النساء: (١٦٣ – ١٦٤)

وقوله تعالى ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾

البقرة: (١٣٠ – ١٣٢)

وهذا المعنى الذى وإن ردد بشكل عام، فإنه ينصرف إلى هذا المشترك الثقافى الذى يضيف إليه ويعمقه معنى الهوية الخاصة بنا فى الشرق.

فإذا وضعنا نصب أعيننا المستقبل – لا الماضى وحده – يمكننا أن نستعيد كل هذه القيم الدينية والسياسية والحضارية الدالة على تأكيد هذا المشترك فى نسيج الهوية التى ننتمى إليها جميعا فى الشرق وهو ما يمكن الوصول منه إلى قضية المشترك الدينى.

لقد تعددت صور هذا المشترك ليمثل فيه معنى الهوية التى تحتوى العديد من الهويات والاثنيات و.. وهو ما يمكن عنده فهم – على سبيل المثال – معنى المشترك الدينى.

المشترك الدينى هنا يحتوى على العديد من هذه القيم منها ثقافة الحوار فى تعبير د.محمد خليفة حسن حين رأى أن ثقافة الحوار خاصة ضرورة لكن لكى تنجح « لا بد أن تتوفر له شروط أساسية ومجموعة من الآداب والضوابط. ومن أهم هذه الشروط استقلالية الأديان والثقافات وتأمين عدم خضوعها لتبعية أو هيمنة دين من الأديان أو ثقافة من الثقافات، ويرتبط بالاستقلالية أن يقوم الحوار على أساس من الشورى والديمقراطية تتساوى معها الأديان والثقافات، وتملك جميعا حق التعبير عن نفسها فى ظل السيادة الكاملة وعن طريق ممثليها الشرعيين، وبعيدا عن كل أشكال الضغوط الدينية أو السياسية. ومن شروط نجاح الحوار استمراريته وذلك لاختلاف طبيعة الحوارات الدينية والثقافية عن المفاوضات السياسية أو الاقتصادية التى قد تنتهى بانتهاء المشكلة التى يتم التفاوض عليها. أما قضايا الدين والثقافة فهى قضايا مستمرة فى حياة البشر، والحوار حولها يجب ألا يتوقف. كما أن من شروط الحوار الدينى أو الثقافى أن تتحقق منه الفائدة المرجوة على المستوى الدينى

والثقافى فيرتقى مستوى التفكير، وتتطور المفاهيم الروحية السامية، ويحدث التغيير المرجو فى العلاقات الدينية والثقافية بين الشعوب.

المؤتمر الدولى الأول للمشترك الثقافى «جامعة القاهرة»

وهو ما يعود لتأكيده د. محمد خليفة عبر عدد من الشروط، بما يعود بنا إلى القيم الأولى للأديان، وقد أعطى القرآن الكريم والسنة النبوية الطاهرة منظومة لآداب الحوار وضوابطه تتمثل فى الحوار الحسن، والقول الطيب، واللين فى التعامل، والحوار بالحكمة والموعظة الحسنة، والتزام الأدب والبعد عن السباب، وضرورة التواضع، والالتزام بالعدالة والمساواة والشورة. وقد أعطى النبى عليه الصلاة والسلام من خلال حواراته المتعددة النموذج والقدوة للمحاور المسلم من حيث الالتزام بآداب الحوار مثل الصدق، والصبر، والحلم والأناة، والرحمة والرفق والمرونة، والتسامح، والدماثة واللطف، والكياسة والفطنة، وحسن الخلق على وجه العموم، بالإضافة إلى سلاسة القول، والفصاحة والبيان، والكلام الفصل المفهوم (السابق).

ومع أنه يدرك أن الحوار ضرورى فإنه يدرك أكثر مشكلة غياب المحاور المؤهل والمدرب عبر هذا الحوار فيوصى بالابتعاد عن غلبة التمثيل الرسمى والطابع المؤسسى للحوار فضلا عن ضرورة الاتفاق على عدم مناقشة الموضوعات الخلافية، فقد نصت العديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية على قيمة الحوار، متأنيا أكثر عند صعوبة هذا الحوار حين يتحول إلى إشكالية لدى الأقليات بوجه خاص، موضحا فكرته بأن الحوار الخارجى فهو مع غير المسلم الموجود داخل البلاد

الإسلامية فى شكل أقليات دينية أو خارج المجتمع المسلم فى بلاد لا تنتمى إلى الإسلام. وهذا الحوار الخارجى أصبح ضروريا فى العصر الحالى من أجل تصحيح صورة المسلمين التى شوهتها وسائل الإعلام، وصحة التعريف بالإسلام وتقديمه إلى غير المسلمين، ومن أجل منع وقوع الاضطهاد بالأقليات المسلمة فى العالم، ومن أجل التعارف ودعم العلاقات الدينية والثقافية مع الشعوب، وبناء المشترك الإنسانى مع غير المسلم على أسس الأخوة الإنسانية، ووحدة الجنس البشرى، وعلى أساس من الجوار الإنساني، والاستخلاف فى عمارة الأرض، والتكريم الإلهى لبنى آدم، وأيضا على أسس التعارف والتعاون الإنسانى وأساس المواطنة الإنسانية والانتماء إلى الوطن الواحد والعالم الواحد.

وهو ما يمكّن دائرة الحوار من الاتساع والتعمق فى المحيط العالمى، أى الخروج من إطار الاثنيات والعقائد المتباينة إلى إطار أعم وأشمل فى الفضاء الثقافى المشترك مما يغطى مجالات كثيرة مثل مجالات الأديان والثقافات والحضارات، وكل الأنشطة الإنسانية، ومجال القيم الإنسانية العامة، والقضايا الإنسانية المشتركة مثل قضايا الفقر والجهل والمرض، والعنصرية والاستعباد. وهناك أيضا قضايا التنمية البشرية، وعمارة الأرض، ومجال حقوق الإنسان، والأقليات والمرأة، والطفل. فضلا عن أن نظريات الصدام والصراع ونهاية التاريخ وغيرها كما نلاحظ لا تعترف بالمشترك الإنسانى، ولا ترضى بالتعايش، وتوظف الثقافات والحضارات والأديان لإثارة الصراع بين الشعوب، ووأد كل وسائل الالتقاء وبناء المشترك.

لقد بدا واضحا للجميع هنا أنه من الضرورى إعادة بناء ثقافة الحوار على المستوى الداخلى والعالمى فى آن واحد «وبخاصة بعد التدهور الذى

أصابها فى الغرب» غير أن التمهل أكثر يكون هنا فى الشرق حيث «لابد من تطوير آليات سياسية، وثقافية، وتربوية وتعليمية، ووسائل دينية وإعلامية من أجل بناء ثقافة الحوار» وما إلى ذلك ليمكننا من استيعاب واقع الصراع العالمى مع استيعاب أسباب الخلاف ومن ثم استقطاب عناصر الإيجاب لتأكيد هذه القيمة لدى هذا الإنسان فى الشرق الذى أصابه الكثير بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر، ليس لما يعانيه من الآخر وحسب وإنما - فى المقام الأول- لما يعانيه من الداخل حيث افتقدت هذه القيمة - الحوار- وهو ما يجب معه التنبّه إلى العود إليها هنا لصنع (هوية) أو - بشكل أدق - للعود إلى هذه الهوية الشرقية الخاصة بنا التى تقوم على الكثير من القيم الإيجابية مع الذات ومع الآخر[1].

(١) لاحظ د. خليفة هنا أن للحوار ثمراته المعروفة فى مجال الدعوة الإسلامية حيث اعتمد عليه بصفة دائمة كوسيلة تعريف بالإسلام، وأداة توصيل لعقائده ومضامينه بعيدا عن الإكراه الدينى، والحقيقة أنه بدون الحوار لا يمكن تصور نجاح الدعوة. فقد حتمت عقلانية الإسلام من ناحية والإيمان بحق الاختلاف الدينى من ناحية أخرى أن يصبح الحوار وسيلة المسلمين الأولى فى الدعوة. ومن ثمرات الحوار النجاح فى تحسين العلاقات الإسلامية المسيحية وقد تُوِّج هذا النجاح بإصدار إعلان الفاتيكان بتطوير العلاقات المسيحية الإسلامية فى بداية الستينيات من القرن العشرين وتم على أثر ذلك تكوين لجنة الحوار المسيحى الإسلامي، واللجان الأخرى الفرعية التى انبثقت عنها. ومن فوائد هذا الحوار الاعتراف باستقلالية الإسلام من ناحية وبشراكته فيما سماه الفاتيكان « التراث الإبراهيمى» وقد توسع الحوار بعد ذلك ليضم كل المذاهب المسيحية التى سعت للحوار مع المسلمين من خلال لجان معتمدة للحوار. وقد رسخ الحوار فكرة التقاء الثقافات والحضارات وعدم صراعها، وكان له دور مثمر فى مواجهة كل نظريات ودعوات الصدام والصراع. وأفاد الحوار داخليا فى التقريب بين السنة والشيعة، وإن كان هذا المجال لا يزال يحتاج إلى جهود إيجابية ومكثفة نحو تحقيق هذا التقريب. وقد أثمر الحوار أيضا عن نجاح الجهود الساعية إلى وضع مواثيق عالمية للحوار بين الحضارات وحوار الأديان وأصدرت بعض المنظمات الدولية والعالمية بيانات ومواثيق فى هذا الخصوص.

وعلى هذا النحو، راح عدد كبير يؤكد على أن الايمان المشترك بين الأديان يتأسس على «مبدأين رئيسين يُقِرُّهما الإسلام بوضوح لا لبس فيه : أولهما هو مبدأ « الفطرة الإنسانية» التي فَطَر الله الناس عليها في أصل الخلقة حين جَبَلهم على الإيمان به والإقرار بربوبيته؛ وهو ما يكشف عنه قوله سبحانه وتعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

(الأعراف: ١٧٢-١٧٣)

دون أن يكون ذلك قيدا على حرية الاعتقاد التى اقتضتها مشيئة الله – الغنى الحميد – فى خلقه : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الكهف: ٢٩)

وثانيهما هو مبدأ وحدة الأصل الإنسانى الذى تسطع به آيات القرآن الكريم فى نحو قوله تعالى – جلّ شأنه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾

(النساء: ١)

وقوله سبحانه : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ﴿٩٨﴾ ﴾

(الأنعام: ٩٨)

وفى هذا بيان لأصل التسوية والاتفاق لا لأصل التنافر والاختلاف فى المجتمع الإنسانى، وفى ذلك يقول جلَّ شأنه: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ يونس: (١٩) مؤكدا من آن لآخر على المعنى العام الذى تؤكده حقيقة أن وحى الله لايختلف فى الأولين أو الآخرين سواء فى طبيعة هذه القيم أو الإخلاص لها مؤكدا هذا المعنى فى أمور شتى منها :

- إن الدين واحد وإن اختلفت الشرائع والدين الواحد الذى لا يُقبل غيره هو التوحيد والإخلاص لله الذى جاءت به الرسل. وهذا الدين الواحد هو المعبَّر عنه فى آيات من القرآن بالإيمان وعن أهله بالمؤمنين والذين آمنوا. وفى تفسير محمد عبده لقوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ ﴾

التين: (٦- ٧)

يُبيِّن أنَّ الذين آمنوا هم الذين صَدَّقوا بأصل الخير والشر، واعتقدوا اعتقادا صحيحا بالفرق ببين الفضيلة والرذيلة، وبأن لأنفسهم وللعالم حاكما يرضى ويغضب ويثيب ويعاقب وأن لهم جزاء على أعمالهم.. ثم كان تصديقهم هذا بالغا من أنفسهم حدَّ أن يملك إرادتهم فلا يعملون إلا ما وافق اعتقاداتهم؛ فهم يعملون الصالحات، وجماعها أن تكون نافعا لنفسك ولأهلك ولقومك وللناس أجمعين. ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴾؛ الدين هنا هو خلوص السريرة للحق، وقيام النفس بصالح العمل. وهو ما كان يدعو إليه صلى الله عليه وسلم وسائر إخوانه الأنبياء. وعلى

هذا لايكون للعبادات البدنية اعتبار فى الإسلام بحسب صورها الظاهرة وإنما هى معتبرة بالنيّات والهيئات النفسانية التى هى مصدرها: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ (الحج: ٣٧)، «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى» (صحيح البخارى). ولن يُضيِّعَ الله أعمال الصالحين وإن اختلفت شرائعهم، وهو ما يؤكده قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (البقرة: ٦٢).

وهو ما يصل بنا إلى المعنى العام والأحكام العملية، فالمعنى الذى نزلت فيه الآيات هى فى قوله تعالى فى حجة الوداع ﴿ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ المائدة: (٣)

على أن الدين – الذى هو الإسلام – هو التنصيص على قواعد العقائد والتوقيف على أصول الشرائع التى كملت فى القرآن.

ويأتى بعد هذا الأحكام العملية التى حدد هيئتها العامة د. مصطفى لبيب فى أنها تختلف باختلاف الأنبياء والأمم، وقد تتغير بتغير الأوضاع، ولم تكن كملت عند نزول الآية. والإسلام – الذى هو الإيمان بالأصول الدينية التى هى حقائق خالدة لا يدخلها النسْخ ولا يختلف فيها الأنبياء – هو الدين الذى لا دين غيره عند الله، إنه التوحيد وإسلام الوجه لله.

إن المعنى الذى يؤكده الباحث هنا هو إعادة تأكيد الحقيقة التى جاءت بها الأديان من تأكيد الفطرة الإنسانية وتأكيد عوامل التغيير وشروطها ليصل إلى حقيقة مؤكدة لدى من يدرس الأديان من هذه الوحدة المشتركة لأصول الديانات وتجاوز الاختلافات بينها ليؤكد – مع غيره – أن المشترك الثقافى الذى يستمد خيوطه الأولى من الديانات السماوية إنما يؤكد على هذه الوحدة المشتركة لأصول هذه الديانات، ومن ثم، تأكيد الهوية الشرقية لنا إذا أردنا أن تكون لنا هوية واحدة تعبر عن الواقع وتجاوزه فى وعى شمولى واحد[1].

وهو المعنى الذى أكده عدد كبير من المشاركين فى هذا المؤتمر من شتى أنحاء العالم فى التأكيد على نفس اللحن مع تغيير الإيقاعات

(١) ويبلغ تمثُّل هذه الوحدة المشتركة لأصول الديانات وتجاوز الاختلافات بينها غايتَه فى نظرية الشيخ الأكبر محى الدين بن عربى (ت: ٦٣٨ هـ) الشهيرة عن «وحدة الأديان» – والتى عُبِّر عنها بقوله: –

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى ... إذا لم يكن دينى إلى دينه دانى
لقد صار قلبى قابلا كل صورة ... فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف ... وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنَّى توجُّهت ... ركائبه فالحب دينى وإيمانى

ولا ريب أن نظرية ابن عربى هذه تُعَدُّ تطويرا لنظرية الحَلاَّج – الصوفى الشهيد (ت: ٣٠٩ هـ) – والتى سبق أن عَبَّر عنها بقوله:

تفكَّرت فى الأديان جَد محقق ... فألفيتها أصلاً له شعبا جَمَّا
فلا تطلبنْ للمرء دنيا فإنه ... صدٌّ عن الأصل الوثيق وإنما
يطالبه أصل يُعبِّر عنده ... جميع المعانى والمعانى فَيُفهما

وجدير بالذكر استباق الحضارة الإسلامية إلى طرح هذا المفهوم الجوهرى لوحدة الأصل الدينى المشترك بين البشر.

والترددات بين كون الأديان – التى تعود إلى مؤثر واحد– مكون أساسى للثقافــة إلى الصعود لآفاق كثيرة لتأكيد هذا المعنى فى التصوف والتجربة الصوفية على سبيل المثال، وهو ما تعددت فيه التفسيرات عند كرستيان أن نسبن وجوزيبى سكاتولين وايلينا بياجى وثابت عيد،وغيرهم..

وهو هو المعنى الذى شــهدنا معه – مع تطور نسيج المشترك الثقافى واتساعه – على منظور آخر، ونقصد به المشترك السياسى

وهو ما نتمهل عنده أيضا.

□□□

⑦ المشترك - الثقافة السياسية

رأينا كيف أن المشترك الثقافى يمر بهذا التعريف البديهى من تأكيد نسيج الهوية فى المحيط العام؛ ومن ثم، فإن الوصول إلى الهوية العالمية يكون مرهونا بالوعى بالهوية الخاصة، وهى هوية ترتبط هنا بالرموز الثقافية القائمة على الوعى الإسلامى، فقد تحولت الثقافة الخاصة بنا إلى هذه الثقافة المستقاة من تقاليد الثقافة الإسلامية ورموزها العديدة، وهى التقاليد التى تعرف الثقافة السياسة ورموزها فى الغرب اليوم. ليس البحث عن عناصر هذه الهوية فى الفكر الغربى إلا محاولة تأكيد الرموز الإسلامية وثقافة العقيدة فى الثقافة المعاصرة ..

وهو ما وصلت فيه اجتهادات معاصرة إلى مبنى مشابه فى المجال السياسى فى أن المشترك الثقافى يظل تابعا دالا على - ومن - المشترك السياسى.

وهو ما يفسر كيف أن أغلب من حاول رصد المشترك السياسى فى هذا الاتجاه كان واعيا لهذا المفهوم - فالهوية الشرقية لاتتحدد إلا فى إطار الفكر العالمى الذى يقوم على هذا الوعى السياسى الذى لا نصطدم به وإنما نجده - فى أطروحاته السياسية - متجانسا مع فكر الثقافة الإسلامية.

وهو ما يفسر هذا التحول الذى أشار فيه المشترك السياسى إلى ضرورة اتخاذه شكلا مؤسسيا يقوم على قيم الفكر السياسى (الديموقراطية)..وهى القيمة التى تساوى الفكر السياسى (الشورى) هنا.

إن الانتقال من الخاص إلى العام يصل بنا إلى هذا الفهم لدى بطرس غالى، حين يلاحظ منذ البداية أن التواصل إلى المشترك الثقافى يمر بضرورة الوعى بالحاجة إلى «وجود هيكل يأخذ شكلا مؤسسيا»، وهو يخرج من الإيجاز إلى التفسير أكثر حين يضيف أن ذلك يمضى فى تحديين : التحول نحو الديموقراطية فى الأمم المتحدة أولا كخطوة أولى والتحول الديموقراطى للدولة كخطوة ثانية يُمثلان متطلبا أساسيا لهيكل «برنامج المشترك الثقافى».

أما التحدى الآخر يتمثل فى تحقيق ثقافة الديموقراطية على المستوى الدولى.

ولا يقتضى ذلك فقط مجتمعا من الدول الملتزمة بمبادئ الديموقراطية وعملياتها -كما يتردد- بل يحتاج أيضا إلى مجتمع مدنى دولى موسع يشترك بشكل كبير مع مؤسسات دولية أو بين الدول أو مؤسسات خاصة أو حكومية أو غير حكومية. ولكن يجب أن تلتزم هذه المؤسسات بالممارسات والإجراءات الديموقراطية والتعددية السياسية[1].

وحين نمضى فى المساحة البعيدة لهذا المحيط الذى يشير إليه، فإننا نلاحظ أنه يعود من آن لآخر إلى ضرورة المشاركة فى المؤتمرات الدولية، وفى الوقت نفسه نلحظ ما ينجم عنه أن «تتطور قنوات جديدة من

(١) (المؤتمر الدولى، السابق)

التعبير السياسي والأنشطة للأفراد خارج الهياكل الحكومية بل وداخل المجال الشعبى، عندما تُعتبر خارج نطاق الحكومة» (السابق).

وعلى هذا النحو، فإن الطريقة الأكثر فاعلية هنا للوصول إلى باب المشترك الثقافى لابد وأن تمر بالمشترك السياسى الذى يتمثل-فى ضرورة «التحول نحو ديموقراطية الهياكل والآليات الموجودة بالفعل»، وهو ما يعنى أن نضع فى الاعتبارات ليس القضايا السياسية والسلوك الاقتصادى فقط وإنما الطموحات الاجتماعية والثقافية.

وهو ما يصل بنا إلى تأكيد أنه للوصول إلى الوعى الفردى لابد من المرور إلى المؤسسات الدولية وحالات التحول الديموقراطى على جميع المستويات.

فليست هناك فجوة قط بين التنوع الإنسانى العالمى أو الذاتى.

وليس هناك خصام بين الهوية الشرقية فى إطار الهوية العالمية بأية حال، وهو أهم الشروط للدخول فى هذا العصر، حيث يواجه الواقع العربى أو الشرقى بهويته المميزة بهذا التحدى الذى يسعى إلى الانفصال عن العالم، وهو ما تنبه إليه آخر حين يؤكد سياسى ودبلوماسى مثل د.محمد شعبان حين لاحظ بعد رصد هذه التغييرات التى حدثت فى المنطقة - فى إطار العالم - خاصة بعد ١١ سبتمبر من أهمها حتمية الحوار مع الآخر وفى الوقت نفسه الانطلاق من الذات إلى العالم وانطلاق من العالم إلى الذات فى دائرة ضرورة الوعى بحركة الاتصال بين الثقافات من خلال ثورة المعلومات التكنولوجية، وهو يحدد هذا أكثر حيث «أصبحت الديمقراطية والتعددية و الحرية و احترام حقوق الإنسان من مفردات لغة العولمة التى تحدد الموضوعات الأساسية للحوار بين الثقافات والحضارات،

فالديمقراطية مطلب هام للشعوب فى جميع دول العالم، لأنها تساهم فى التنمية الاقتصادية والاجتماعية للدول، فالعلاقة بين تفعيل وإرساء مبادئ الديمقراطية على المستوى الدولى و حمايتها على المستوى العالمى علاقة وثيقة (المؤتمر - أحمد أبو الغيط)[1].

وهو ما يعود بنا إلى أهمية تأكيد قيمة الديموقراطية كأحد رموز المشترك السياسى.

وحين تؤكد الحقيقة التى يجب التنبه إليها هنا من أن قيمة الديموقراطية، التى هى قيمة سياسية مهمة، لايجب أن تحدث بمعزل عن الخارج، وهو ما يؤكده هنا أحمد أبو الغيط من أنه « إذا كانت الديمقراطية هى السبيل الأمثل لشرعية الحكومات فإن حمايتها على المستوى العالمى يعطى دفعة للجهود المبذولة دوليا فى هذا المجال. فالكثير من القرارات المتعلقة بالعلاقات الدولية تؤثر بشكل كبير على المستوى الداخلى للدول. وهناك العديد من الموضوعات التى لا تستطيع دولة بمفردها ومجموعة دول مجتمعة أن تواجهها بمعزل عن الآخرين. ولذلك تؤمن مصر بأن الجهود الرامية إلى حماية الديمقراطية على المستوى الدولى يجب أن تتوازى مع محاولات خلق أسس قوية للديمقراطية على مستوى العالم. هذا الهدف يتطلب إنهاء جميع الخلافات المسلحة، وحل الأزمات الإقليمية و التوصل إلى الحلول المناسبة مع اعتبار احترام الشرعية الدولية و تخفيف المشاكل الناجمة عن العولمة وبناء نظام عالمى قوامه المساواة و العدل، و التأكيد على المشاركة الفعَّالة للدول النامية فى اتخاذ القرار على المستوى الدولى»[2].

---

(١) السابق.

(٢) السابق.

وهـو ما يؤكد هذه الحالة (العضوية) بين الذات والخارج بين الهوية القومية والهوية العالمية.

وبقدر ما يحمل هذا لدينا من جهل بالآخر، فإنه يحمل - بالتبعية - جهلا من الآخر بنا، من صنع جهات معادية لقيمة الإرهاب التى ترتبط بنـا وتتخذ أقنعة عامة مـن مصطلحات من مثل «صـدام الحضارات» و «نهاية التاريخ» والإرهاب الذى نسـمع عنه عالميا سواء فى بلادنا فى الشـرق أو بين الجاليات المسـلمة فى الغرب وإعلاء صيغة غريبة - فى الحـوار ضدنا - من العنصريـة وكراهية الأجانب و «فوبيـا الإسـلام» ومـا إلى غير ذلك ممايضعنا فى حيرة شـديدة أمـام الدعوات والمبادرات التـى تدفع بنـا دفعا إلى تناول قضايا مثل قضايـا الحوار بين الثقافات ممايدفـع بنا لا إلى الدعـوة إلى الحوار مع الآخر فقط، وإنما - فى المقام الأول - الحوار مع الذات.

فالبحث عن الهوية الشـرقية الخالصة الخاصة بنا لابد أن يبدأ من الذات قبل أن يعاود الحضور من الآخر إلى الذات بوجوه مختلفة.

وهو ما يشـير فى السـياق الأخـير إلى ضرورة التنبـه إلى أن الهوية العربية ليسـت مغايرة لما يحدث وإنما يجب أن تكون واعية لعديد من التيـارات والأحـداث حولنا، ليس فى البحث عن القيـم الثقافية بيننا وبين الغرب وحسب وإنما القيم السياسية أيضا.

وهو ما يلفت نظرنا مع سياسـى آخر مثل السـفير نبيل فهمى حين يلاحظ أن المشترك السياسى إنما يساوى «دعوة إلى هوية عالمية».

وعلـى هذا النحو، يعبر بنا إلى عديد من الصور والرموز المعاصرة: من نظام عالمى متعدد الأقطاب إلى نظام عالمى ثنائى القطبين والحرب الباردة

ليصل بنا - بعد المرور من موجة العولمة - إلى التأكيد على عناصر الهوية العالمية. هى العناصر التى تؤكد بديهيات أن الهوية الشرقية هنا لا تنفصل عن الهوية العالمية بأية حال.

وهو ما يعود إلى طبيعة الاتصال المؤكد بين رموز المشترك الثقافى والمشترك السياسى فى هذه «الهوية العالمية» عبر العديد من الملاحظات والمراحل.

إن الوصول إلى الهوية العالمية يعنى :الهوية العالمية لاتعنى أبدا تمزيق النظام الحالى بل نبذ فكرة حتمية صراع الحضارات،والتنبه إلى أننا نعيش فى عالم تتوافر فيه٨٠ ٪من ثرواته فى ٣٠ ٪ من سكانه كما أن الصراع بين الشعوب الإسلامية والصهيونية يجب أن يصاغ فى «توازن المصالح» لا «توازن القوى»، وهو ما يصل بنا إلى حقيقة مهمة هى أنه لابد لعالم يتمتع «بالهوية العالمية» أن يدعم ويحرص على حقوق الأفراد كما لابد للشعوب من أن تمتلك الحق فى تقرير مصائرها اعتمادا على معايير مشتركة من المساواة والعدل والتعددية التى يتم تفعيلها بأسلوب يستجيب لاحتياجات وتقاليد كل مجتمع ، حيث يمكن من خلال التربية والتعليم والحوار والتسامح والتفاعل أن نوحد جهودنا لمواجهة التحديات من خلال «الهوية العالمية» والتى تطور وتؤمن بمعايير مشتركة وتحترم هويتنا الفردية أو اختلافاتنا الثقافية ، وبهذا الصدد لابد وأن يكون هناك دائما أطروحات عالمية قد يعارضها القليل من الناس مثل إعطاء السلطة للشعب ، والحكومة الصالحة والتعددية وسيادة القانون واحترام حقوق الإنسان ، ولكن على الجانب الآخر، فإن طريقة التعبير

عــن مثل هذه المبادئ والأفكار ســوف تتنوع حتمــا من بلد لآخر، وهذا يعنى أنه بينما يجب أن تكون كل تلك الأفكار عالمية ومشتركة، إلا إنها لابــد أيضا أن تصطبغ بصبغة محليــة لتعبر بحق عن احتياجات وآمال المجتمع الذى من المفترض أن تحكمه تلك القيم والأفكار، وهذا لابد وأن يحدث بسرعة وحسم»[1].

وعلــى هــذا النحو، فإن ذلك يعود دائما مــن الذات إلى الآخر قبل أن نعــود من الداخل إلى الخارج فى إعادة صنع منظومة جديدة حيث – كما يؤكد الشــاهد السياســى – إننا نحن على أعتاب حقبة تحمل لنا آمالا عريضة فى عالم أفضل وتحقيق هذا الأمل يتطلب منا أن ننظر «أفرادا وجماعات» إلى الكثير من أفكارنا وقيمنا الموروثة لنراجعها بعقل متفتح، وهو مايعود بنا من جديد من الهوية الشــرقية إلى جادة الهوية العالمية» (السابق).

وهو ما يعيد ترجمة المعنى العضوى بين الثقافى والسياسى إلى منظومة المشترك.وهو ما يدفعنا –من جديد– إلى استدعاء المفاهيم الغربية قبل أن نعود إلى الخبر الأخير: المشترك.

فلنقترب من هذه المفاهيم – الصهيونة أو الإمبريالية المعاصرة.

□□□

(1) السابق.